

راهنية فكر مالك بن نبي في زمن العولمة The Current Thought of Malek ben Nabi in the Globalization era

الباحث علام محمد

جامعة أبو بكر بلقايد _ تلمسان

University of Abou bekr belkaid _ Tlemcen

تاريخ القبول: 2020/05/12

تاريخ الاستلام: 2020/05/02

تاريخ النشر: 2020/07/30

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الواقع الحضاري للأمة الإسلامية في ظل التطورات العلمية والثقافية والتكنولوجية الحاصلة على المستوى العالمي، وأثر مفهوم العولمة على حاضر ومستقبل هذه الأمة، على ضوء التصور الذي أتى به المفكر الجزائري مالك بن نبي في مشروعه الهادف إلى تحليل مشكلات الحضارة، واقتراح حلول لها.

وقد أسفرت الدراسة على تصنيف الأمة الإسلامية أمة متخلفة إذا ما اعتمدنا التقييم الذي يعتد به مالك بن نبي، باعتبار أن المعيار الحقيقي الذي تقاس به درجة تحضر الأمم هو قدرتها على تشكيل ثقافة خاصة بما تراعي فيها مقومات هويتها. واقتحام المسلم اليوم للعالمية على المستوى الشيعي يثبت وضعية التخلف من منظور مالك بن نبي ويجعل فكره راهنا، وجدير بالدراسة والاهتمام، ولما لا اعتماد مقترحاته حلاً للخروج من الأزمة.

كلمات مفتاحية: مالك بن نبي، حضارة، عولمة، مجتمع، ثقافة.

Abstract :

This study aims to analyze the civilizational reality of the Islamic nation during the scientific, cultural and technological developments taking place at the global level, and the impact of the concept of globalization on the present and future of this nation, in the light of the perception that the Algerian thinker Malek ben Nabi brought in his project aimed at analyzing the problems of civilization, and proposing solutions to it.

The study has resulted in the classification of the Islamic nation as a backward nation if we adopt the assessment that Malek ben Nabi takes into account, giving that the real criterion by which the degree of civilization of nations is measured is their ability to form its culture that takes into account the elements of their identity. And the Muslim's storming of the world today at the objective level proves the position of backwardness from the perspective of Malek ben Nabi and makes his thought current, and his study worthy and attracted, and why not adopting his proposals as a solution to get out of the crisis.

Keywords : Malek ben Nabi, civilization, globalization, society, culture.

• المؤلف المرسل: علام محمد، ALLAM Mohammed الإيميل:

باحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية مخبر الفينومينولوجيا medallam2018@gmail.com

وتطبيقاتها / جامعة أبو بكر بلقايد _ تلمسان، Laboratory of phenomenology and its applications

University of Abou bekr belkaid _ Tlemcen

1. مقدمة:

يستهل الفيلسوف الألماني المعاصر "إدموند هوسرل" (1859-1938) كتابه "تأملات ديكارتيّة" بفكرة مفادها: أنه على كلّ إنسان (فيلسوف) أن يعود على ذاته على الأقل مرّة في حياته، وهي الفكرة نفسها التي قال بها الفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكرت" (1596-1650) في كتابه "تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى". وقد قصدا كليهما من وراء هذه العودة التأميل لنظرية في المعرفة تتجاوز الإحراج القائم حول مسألة الفصل في مصدر ومبدأ المعرفة الحقيقية من تلك التي يشوبها الشكّ والظن. ويمكن أن نصف كلتا التجريبتين التي أفضت بهما إلى نتيجة ضرورة العودة على الذات الفردية بكونها السبيل الوحيد لمعرفة الذات أولاً ثم العالم الخارجي؛ أنها تجربة إغولوجية (Egologique) لا تتعدى أن تكون مقتصرة على محاولة فهم ذاتها فقط، بالرغم من اعتماد هوسرل لفكرة "الغيرية" كضمان أخير لمعنى الموضوعية الخارجية، وديكرت للعناية الإلهية باعتباره الضامن المتعالي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هذه الفكرة الأخيرة التي يمكن أن نصفها بـ: "الفكرة الروحية" وإن كانت تتناقض مع المبدأ العقلي الذي انطلق منه ديكرت إلاّ أنها تعبر عن رابط ميتافيزيقي خفي يخدم النظرية المعرفية في شكلها الكلي، أي في ترابطها المنطقي الصوري.

بمثل هذا التصوّر الروحي عالج المفكر والفيلسوف الجزائري "مالك بن نبي" (1905/1973) قضايا الحضارة والمجتمع والثقافة وغيرها من المسائل التي ترتبط بالإنسان، ليس بشكله المفرد كما رأينا مع الفيلسوفين الغربيين، ولكن في شكله الكلي

¹ مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي، ولد بقسنطينة في الفاتح يناير سنة 1905، تلقى تعليمه الابتدائي بمدينة تبسة في الحدود الشرقية الجزائرية، وظل يتنقل بين هاتان المدينتان طيلة صباه وشبابه بحكم الظروف التي كانت تعيشها عائلته، وتعليمه الذي أخذ منه على غير عادة أتراه من شباب الجزائر آنذاك جلّ وقته واهتمام عائلته، ثم هاجر إلى فرنسا بعد نيله لشهادة البكالوريا لمتابعة دراسته في كلية الهندسة التي تخرج منها بدرجة مهندس كهرباء. في سنة 1956 استقر بمصر فترة من الزمن قدّم خلالها ندوات في منزله وألّف فيها بعضاً من مؤلفاته ووقف على ترجمة كتب أخرى له. وفي سنة 1963 عاد إلى الجزائر بعد ما حصلت على استقلالها سنة 1962 فعين مديراً عاماً للتعليم العالي حتى عام 1967 حيث استقال من منصبه وتفرغ للعمل الفكري والمحاضرات حتى وافته المنية في 1973/10/31. أنظر: مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن (القسم الأول والثاني)، دار الفكر، ط4، دمشق، سورية، 2006.

(الفرد داخل المجتمع) بما هو كيان مميز، له وجود وتوجّه غاية. وهو الأمر الذي جعلنا نختاره نموذجا نحقق من خلاله ردّة على الذات في شكلها الكلي (المجتمع) لمحاولة فهم واقعه (نا) من خلال التصوّر الذي وضعه مالك بن نبي قبل نصف قرن، حول ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع (الجزائري) كونه جزء من الأمة العربية الإسلامية، بحكم ارتباطه التاريخي مع هذه الهوية¹، وربطه بمفهوم "العولمة" التي صارت حقيقة واقعة لا يمكن إنكار مظاهرها ولا نتائجها، وقد أخذت أبعادا كبيرة وخطيرة لم يكن لـ: مالك بن نبي أن يتنبأ بها بحكم التطور الكبير الذي عرفته وسائل الإعلام، وأعني بها تحديدا "الانترنت" باعتبارها وسيلة تواصل العصر الرئيسية والمؤثرة بشكل فعّال سلبا وإيجابا على كلّ هوية.

سيكون اشتغالنا بادئ الأمر حول مفهوم المجتمع؛ بتوضيح معناه كما يتصوّر مالك بن نبي؛ لأنه وكما نعلم أن فكر بن نبي كان تنظيريا بحتا، اكتفى من خلاله بعرض أسباب ميلاد المجتمعات وتطوّرها وظروف أفولها وانحلالها، بحسب الرؤية المتاحة لديه وفي زمنه. ثم سنعرض لمفهوم "العولمة" الذي أخذ أبعادا جديدة ومتسارعة مع التطور التكنولوجي في مجال وسائل الإعلام والاتصال، والذي أعطى صورة جديدة للعالم ومنح الغلبة لمالكي هذه الوسائل. وفي الأخير، ومن خلال ما سنحصل عليه عبر التحليل يكون بإمكاننا إصدار حكم عن مدى راهنية فكر مالك بن نبي الاجتماعي من عدمها.

الإشكالية: من خلال هذه المنطلقات التي نضعها أرضية لهذه الدراسة والأهداف التي نرجو تحقيقها، نطرح الإشكالية التالية: هل التصوّر الذي وضعه مالك بن نبي حول المجتمع الإسلامي له من المعطيات ما يبرر إمكانية تحقيقه في زمننا أو في المستقبل القريب باعتبار التحولات الفكرية العالمية التي رافقت التقدّم التقني والتكنولوجي، أم

¹ ليس غريبا عن مالك بن نبي توجهه الإصلاحية الشامل، الذي كان يرجو من ورائه ليس فقط بناء مجتمع جزائري بخصوصياته التاريخية والثقافية وإنما كان هدفه أيضا بناء دولة إسلامية بالمعنى العالمي كما كانت عليه في أعز مجدها، ويمكن فهم ذلك في إطار التكلل الذي يعني القوة ومجاهمة المستعمر، وقد كان له في ذلك التوجه أفكار عديدة كفكرة كومونيلث إسلامي، ووحدة إفريقية وغيرها تكون بمثابة قوة موازنة للعالم الغربي الاستعماري بقطبيه الشمالي والجنوبي؛ محور واشنطن - موسكو. أنظر: مالك بن نبي، فكرة كونويلث إسلامي، دار الفكر، دمشق، سورية، إعادة ط2، 2000، ص12

أنّه تصوّر عفا عنه الدهر ونحن نتّجه نحو مجتمع عالمي تشكل صورته القوى المؤثرة في نحت مفهوم العولمة؟

أهداف البحث ومنهجيته: يهدف هذا البحث بالدرجة الأولى إلى لفت انتباه شباب المجتمعات العربية الإسلامية إلى أحد النماذج الفكرية الإصلاحية والتنظيرية، والمتمثل في شخص المفكر الجزائري مالك بن نبي، خاصة وأن هذه المجتمعات أصبحت تعيش منذ زمن، أزمت عنيقة يعود سببها في أغلب الأحيان إلى عدم انسجام أفكارها مع واقعا. كما يهدف إلى إعطاء صورة مكبرة وواضحة عن الوضعية الحضارية الحقيقية، التي تعيشها هذه المجتمعات عبر توضيح المعنى الملتبس الذي يحمله مفهوم العولمة، كونه ومن حيث المبدأ يعطي صورة كلية وموحدة للعالم، تختفي فيها الفوارق الحضارية. بينما في الواقع هو صراع بين الشعوب يصنع فيه القوى المفاهيم وهو مؤمن بها، وآخر يتأثر بما يصنعه الأول ويستهلك دون أدنى اعتبار لمقومات وجوده، بل أكثر من ذلك يعيش ولا يعي دوره في التاريخ ولا مكانة أمته بين الأمم.

من هذا المنظور نعتمد منهج التحليل في شكله البسيط لرصد أهم العناصر الأساسية التي من شأنها أن تخدم غرضنا من هذه الدراسة، وهو كما أشرنا من قبل تشخيص الوضع الحضاري الحالي للأمة الإسلامية وتقدير درجة تحضرها مقارنة بالتصور الفكري لبن نبي.

2. المجتمع بين المفهوم والتاريخ:

1.2 مفهوم المجتمع:

تعني كلمة "مجتمع" في أوسع معانيها "مجموعة أفراد تقوم بينهم علاقات منظّمة ومصالح أو خدمات متبادلة"¹. وبهذا المعنى أيضا يفهم مالك بن نبي معنى المجتمع،² إلا أنه يفرّق في هذا المستوى بين نوعين من المجتمع: الأول "ساكن وذي معالم ثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل أو النحل، والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل

¹ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001، ص1305.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية" الجزء الأول، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط6، دمشق، سورية، 2006، ص15.

الاستعمار، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي"¹. أما الثاني فهو "متحرك، يخضع لقانون التغيير، الذي يعدّل معالمة من جذورها"². وتكون نشأة هذا النوع الثاني بطرق مختلفة أيضا؛ فهو إما أن ينشأ طبيعيا، أي من اجتماع للبشر بحكم أحداث تاريخية مثل "نشأة المجتمعات التاريخية الأولى، إبان الثورة الزراعية في العصر الحجري الجديد"³ أو أن يكون منشؤه من عناصر استخدمت في مجتمع تاريخي سابق، كما هو الحال بالنسبة للمجتمع الأمريكي الذي يعدّ تركيبا لعناصر المجتمع الأوروبي إثر هجرته بعد اكتشاف القارة الأمريكية في نهاية القرن الخامس عشر (1493م).

وبغض النظر عن الكيفية التي يُبنى بها المجتمع الذي يسميه بن نبي "مجتمع تاريخي" بحسب التصور الثاني، يمكن تمييز داخل هذا النوع نموذجين: الأول جغرافي والثاني فكري (إيديولوجي)، وإلى هذا الأخير "ينتمي المجتمع الإسلامي، كما ينتمي إليه المجتمع الأوروبي الأصلي"⁴، وهو الذي يُعد بصورة عامة ثمرة للفكرة الدينية. هذا النوع من المجتمعات وبحكم تعريفه هو مجتمع "متحرك" متغيّر دائما، يُنتج وسائل التغيير ويعلم الهدف الذي يسعى إليه،⁵ كما أنه يخضع لنظام معين تتشكل عليه عناصره الأساسية؛ فهو كونه تجمّع إنساني: محكوم بالحركة الدائمة، ويستدعي أسبابا لقيام هذه الحركة، تكون لها بالضرورة وجهة⁶. وما ينتج عنها من إنجازات تميز النوع البشري يمكن أن يطلق عليها معنى "حضارة" لأنه بالنسبة ل: مالك بن نبي "الطبيعة تُوجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع. وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، وهو ما يطلق عليه اسم الحضارة"⁷.

1 المصدر نفسه، ص9.

2 المصدر نفسه، ص10.

3 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4 المصدر نفسه، ص12.

5 المصدر نفسه، ص17.

6 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

7 المصدر نفسه، ص18.

إنّ المجتمع الذي نحن بصدد تحديد معالمه هو المجتمع الإسلامي الذي يعتبر هو أيضا قد نشأ من فكرة روحية، وهي الفكرة الدينية الإسلامية قبل أكثر من أربعة عشر قرناً¹. ولكن هل يمكننا اليوم أن نتحدث عن مجتمع إسلامي بالصورة التي كان يقصدها بن نبي وإن كان كل حديث عن مثل هذه الصورة يعود بنا على الأقل إلى القرن السابع الهجري شكلاً² إن لم نقل إلى الأربعين سنة الأولى من الهجرة النبوية³ تزامناً وحكم آخر الخلفاء الراشدين إذا ما تحدثنا عن المضمون.

من الواضح أنّ ردة مثل هذه تتطلب منا جهداً ووقتاً كبيرين، وربما يفهم القارئ أنه يُقصد من ورائها الحنين إلى مجد الأولين. ويبقى السؤال المهم بالنسبة لنا اليوم هو: هل فعلاً نحن نشعر بانتمائنا إلى هذه الهوية العربية الإسلامية؟* وقد يبدو السؤال غريباً بعض الشيء أول الأمر، ولكن هو سؤال يراد به استبطان الذات للبحث عن جواب لسؤال وجودي مصيري مهم من قبيل: هل نحن نريد أن نتبع في تسيير أمور دنيانا ومآلنا تعاليم الفكرة الدينية ونجعلها دستوراً لمجتمعنا؟

من هذه النقطة فقط يمكن أن يكون لما سيأتي من كلامنا معنى، لأن كل تأويل أو استثمار لفكر مالك بن نبي لا يخرج عن كونه دعوة إلى اتخاذ الدين الإسلامي مرجعية لإنشاء مجتمع عالمي.

¹ وقد أفرد مالك بن نبي لهذا الموضوع كتاباً خاصاً شجّ فيه "الظاهرة القرآنية" وما تعلق بها من ثوابت كانت أساساً لإرساء قواعد مجتمع بسط نفوذه على مجمل أنحاء المعمورة ولقرون عديدة، وهو المجتمع الذي يقصده في كلّ كلامه. أنظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط6، دمشق، سورية، 2006.

² المقصود هنا هو شكل الدولة الإسلامية حتى عهد ما بعد الموحدين الذي بدأ بسقوط الدولة الموحدية (التي أنشأها عبد المؤمن بن علي سنة 524هـ/1130م) بعد هزيمة الناصر لدين الله الموحد في موقعة حصن العقاب في الأندلس في 15 صفر 609هـ، وقد كانت هذه الواقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس. أنظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2002، ص47.

³ وهي الحقبة التي عرفت تحقق جوهر الديمقراطية الحقيقية. أنظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، المصدر السابق، ص12.

* وأخصّ تحديداً المجتمع الجزائري.

من المفيد أيضا ونحن بصدد القيام بهذا البحث النظري في فكر بن نبي أن نعود إلى بعض الأفكار الأساسية حول تطور المجتمعات وسير التاريخ وتشكل الحضارات واندثارها؛ لنموقع أنفسنا أولا في مجرى التاريخ ونحدد ثانيا درجة تحضرنا بالقياس مع أهم النظريات التاريخية والحضارية. ونكتشف في الأخير الجديد الذي أتى به بن نبي في هذا الخصوص.

2.2 النظريات التاريخية الحضارية:

يذهب أغلب الدارسين لحركة التاريخ وتشكل الحضارات إلى تمييز ثلاث نظريات عامة تفسر حركة التاريخ الحضاري: 1- حركة التقدم الصاعد. 2- حركة النكوص المتدهور. 3- حركة تعاقب الدوري.¹

فحركة التقدم الصاعد التي قال بها كثير من المفكرين أمثال باسكال في مجال التقدم العلمي وماركس بالنسبة للتطور الاقتصادي أو داروين في التطور البيولوجي ومرورا بـ "أغيبست كونت" صاحب نظرية المراحل الثلاث: المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة الوضعية،² كلهم ينطلقون من فكرة مرجعية ترسم حركة التاريخ بكونه نموا تصاعديا ينطلق من أدنى نقطة ليصل إلى أرقاها، وهو تصور تغلب عليه النظرة التفاؤلية.

وبالنسبة لحركة النكوص المتدهور للتاريخ الحضاري التي تعبر عن نظرة تشاؤمية، فقد نشأت أول الأمر في المجال الفني الذي غلب على أصحابه من الرومانسيين، الحنين إلى الماضي العتيق معتبرينه أكمل الأشكال الوجودية على الإطلاق، وهو منطلق يغلب عليه الطابع الأخلاقي والديني، باعتبار أن "سقوط آدم قد أعقبه استمرار الخطيئة في ذريته، وإذا كان آدم قد هبط إلى الأرض مرة واحدة، فإن الأجيال التي أعقبته تهبط بأعمالها الشريرة مرارا وتكرارا".³

¹ عكاشة شايف، الصراع الحضاري في العالم الإسلامي "دراسة تحليلية في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي"، دار بن مرابط للنشر، الجزائر، ط5، 2010، ص83.

² المرجع نفسه، ص84. بتصرف.

³ المرجع نفسه، ص86.

أما حركة تعاقب الدوري للتاريخ الحضاري، فهي تتمثل في شكل دورات حضارية، مغلقة أحيانا ومفتوحة أحيانا أخرى، يفضي بعضها إلى البعض الآخر، وقد قال بها على الأقل أربعة هم: ابن خلدون، اوزلد اشبلنجر، ارنولد توينبي وفيكو. تتشابه نظرياتهم شكلا وتختلف بعض الشيء من حيث مضمونها.¹

وقد عبّر "ابن خلدون" عن هذا التعاقب من خلال قوله بأن كلّ حضارة إلاّ وتتعاقب عليها مراحل البداوة والحضارة والترّف والتدهور. وأما اشبلنجر فقد اعتبر مفهوم الحضارة قريب من الكائن البيولوجي الذي يمر لا محال بالمراحل الحياتية المعروفة من ولادة (نشأة) ونمو ثم شيخوخة وفناء. وكل حضارة تمثل كيانا مستقلا عن كيان حضارة أخرى. وأما "توينبي" فيجد أن عنصر التحدي والاستجابة هو ما يتحكم في الحضارات؛ فكل مجتمع يتعرض لتحدي قوي مثل "الاستعمار" ويستطيع أن يقف في وجهه ويستجيب لهذا التحدي بمقاومته يكون قادرا على صنع حضارته. وأما إن لم يستجيب لهذا التحدي فإنه سيظل بعيدا عن التحضر.²

أما "فيكو" فيرى أن نمو الحضارات يكون في شكل لولبي تصاعدي ومتجدد على الدوام، باعتبار أن تاريخ الإنسانية قد مرّ بثلاث مراحل متتابعة (المرحلة اللاهوتية، المرحلة البطولية، المرحلة الإنسانية) وهي مراحل تتفاوت طردا من حيث درجة التقدم، وتعبّر حتما على أن كل حضارة تكون أفضل من سابقتها لأن الإنسان يستفيد من تجارب غيره ويصحح الخاطئ منها.³

3.2 النظرية الحضارية عند بن نبي:

بالعودة إلى مالك بن نبي فإن "آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى مجموعة من العوامل النفسية التي تعد ناتجا عن بعض القوى الروحية"⁴ وهي أشبه إلى حدّ كبير بالمراحل النفسية والتعلّمية التي يمر بها الطفل، والتي يقسمها بن نبي إلى ثلاثة أطوار:

¹ المرجع نفسه، ص 87.

² المرجع نفسه، ص ص 87-90 بتصرف.

³ المرجع نفسه، ص 91.

⁴ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، المصدر السابق، ص 26.

طور الأمومة: حيث لا يكون لدى الرضيع المتشبه بثدي أمه أي مفهوم لعالم الأشياء.

الطور قبل اجتماعي: حيث يبدأ الطفل في الدخول إلى عالم الأشياء، وإن كان لا يزال يجهل كل شيء عن عالم الأفكار.

والطور الاجتماعي (المدرسي وما بعد المدرسي): حيث يحاول الطفل أن يقيم في داخله الصلة بين عالم الأشياء وعالم الأفكار.¹

وأما بالنسبة للمجتمع الإسلامي المعاصر، الذي يضع له بن نبي تاريخ منتصف القرن التاسع عشر وتحديدًا سنة 1858م نقطة البدء أو عصر الانتباه واسترداد الوعي² والذي يمثل طور تأثير الأشخاص³ ويرمز إلى ما اصطلح على تسميته "حركة النهضة" التي قادها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده؛ باعتبار أن ما سبقها - والذي يمتد زمنيًا إلى قرون عديدة- كان بمثابة عصر النوم⁴ الذي لا يتردد بن نبي في تسميته "عصر التخلف" باعتبار التقسيم الذي يضعه لكل حضارة، والتي لا تخرج عن كون المجتمع يحتل فيها إحدى المراحل الثلاث: فهو إما في مرحلة قبل التحضر أو مرحلة التحضر وإما مرحلة بعد التحضر⁵ التي تعني التقهقر على عكس ما يمكن أن توصف به هذه المرحلة لدى بعض الباحثين⁶ على أنها فقط توقف في حركة التحضر.

ومهما يكن من أمر الاختلاف في التعبير عن هذه المرحلة (مرحلة بعد التحضر) فهي بلا شك أخرج المراحل التي يمكن أن يمر بها أي مجتمع؛ تكون بمثابة إصابة جسم كان

¹ مالك بن نبي، فكرة كومونولث إسلامي، المصدر السابق، ص 25.

² مالك بن نبي، فكرة كومونولث إسلامي، المصدر نفسه، ص 26.

³ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، المصدر السابق، ص 27.

⁴ مالك بن نبي، فكرة كومونولث إسلامي، المصدر السابق، ص 26.

⁵ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص 37.

⁶ ونخص هنا على وجه التحديد ما ذهب إليه "عكاشة شايف" في دراسته (المراجع السابق، ص 97) حيث يرى أن أي مجتمع خرج من مرحلة البداوة أو ما قبل التحضر لا يمكنه أن يعود مرة أخرى إلى هذه المرحلة، وإنما يرجع إلى مرحلة التخلف أو ما بعد التحضر ويظل فيها حتى يتسنى له أن ينطلق مرة أخرى إلى التحضر. وهنا يمكن ملاحظة تضارب في معنى مفهوم "التخلف" الذي يقصد به بن نبي "التقهقر" ويفهمه عكاشة شايف على أنه مجرد "توقف".

ينعم بالصحة والانسجام في كيانه بمرض يشوّس عليه عاداته وطريقة عيشه. وهذا الوضع الرديء الذي لا يمكن أن يختلف فيه اثنان، ينطبق تماما على المجتمع الإسلامي منذ زمن طويل وحتى أيامنا هذه. فبالرغم من الاختلاف في مظهر الحياة الاجتماعية وتعقدها، لا تزال الأشياء تحكمها بصورة قريبة جدا من تلك الحياة الاجتماعية البدائية التي كانت قائمة في الجاهلية¹ وقد أصبحت الآن ذات طابع استهلاكي بقدر أكبر "وخالية من الفعالية الاجتماعية"².

هذا الحكم الذي أصدره بن نبي في ستينات القرن العشرين والذي يجعل من المجتمع الإسلامي يعيش في مرحلة ما قبل التحضّر، لا يزال ينطبق عليه ونحن نعيش بداية العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين، وما المقارنة³ التي أوردتها عن المجتمع الياباني، الذي استفاق هو أيضا في تاريخ يقترب بعشر سنوات من تاريخ النهضة الإسلامية⁴ لأكثر دليل على الفعالية التي عرفتها حركة التحضّر عند اليابان، بما توصلوا إليه اليوم من تطور باتت تعكسه رفاهية الياباني في عيشه، ومصطلح "الدولة السائرة في طريق النمو" الذي تُنعت به معظم المجتمعات الإسلامية ولازال ينطبق عليها بالرغم من مرور أكثر من نصف قرن اعتبارا من التاريخ الذي ظهر فيه هذا المصطلح

¹ يعتبر بن نبي مرحلة ما قبل التحضر بالنسبة للمجتمع الإسلامي هي تلك الحقبة التي كان يعيشها العرب في الجاهلية بشبه الجزيرة العربية، والتي ينتمي إليها تاريخيا اليوم مجمل العالم الإسلامي، وهي حقبة بحسب التقسيم النفسي للطفل الذي يعتمد كمثل لشرح تطور المجتمعات تمثل مرحلة تأثير الأشياء التي تشبه إلى حدّ كبير المرحلة التي نعيش فيها الآن باختلاف في الدرجة. أنظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص28.

² مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المصدر نفسه، ص29.

³ يتردد مثال اليابان كثيرا كنموذج يتخذه بن نبي للموازنة بين فعالية نضجهم وعدم فعالية النهضة الإسلامية، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى التقارب في الزمن الذي انبعثت فيه هذه الصحوة. أنظر: مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 2002، ص166.

⁴ يورد بن نبي مقارنة مفزعة عن الفرق الشاسع بين النهضة في البلاد الإسلامية سنة 1858 والنهضة اليابانية سنة 1868، التي يعتبرها توأم زمنيًا ومختلفتان تماما من حيث النتائج. أنظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

للمتيز بين طبقات المجتمعات العالمية، ويعود ذلك بلا شك إلى عدم فعالية حركة التحضر في المجتمع الإسلامي.

إنّ الحالة التي تمر بها المجتمعات الإسلامية بعد استقلال أقطارها من الاستعمار يمكن أن توصف بحالة "الفوضى"¹ بين عالم الأشياء وعالم الأفكار؛ لأنها تستهلك أشياء (كلّ أنواع المواد: المادية والمعنوية، التكنولوجية والثقافية...) تأتتها من عالم آخر، العالم الغربي، وفي الوقت نفسه تخلق تضاربا في أفكار المسلمين بين مساند ومعارض في قيمتها وأهميتها وحتى في درجة تأثيرها.

3. العولمة و اقع حضاري وأزمة هوية:

1.3 مظاهر العولمة:

ينطبق هذا الوصف الفوضوي على مجتمعنا اليوم وهو يعيش ظاهرة جديدة لم يكن بن نبي يُقدّر قوتها بالرغم من أنه لم تفتت الإشارة إليها في كثير من المناسبات. يتعلق الأمر تحديدا بمفهوم "العولمة" أو العالمية،² التي من مظاهرها البارزة "ظهور فاعل بشري جديد. يعمل عن بعد وبسرعة الضوء أو الفكر...إنه الإنسان التواصلي الذي تتيح له الأدمغة الآلية والتقنيات الرقمية التفكير والعمل على نحو كوكبي وبصورة عابرة للقارات والمجتمعات والثقافات"³. وربما كان أهم سؤال يطرحه المثقف العربي والإسلامي المهتم بالشأن الحضاري هو ما تعلق بمستقبل الهوية الثقافية في عصر تسيطر عليه المعلومة الكونية⁴، وهو سؤال يكتسي طابع المشروعية إذا كان الغرض منه الدفاع عن الخصوصية، باعتبار أن ظاهرة العولمة بالصورة التي هي عليها تمثل في نظر البعض "استباحة للقيم وغزوا للثقافات أو فحا للهويات وتسلبا على

¹ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المصدر نفسه، ص28.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، المصدر السابق، ص89.

³ علي حرب، حديث النهايات "فتوحات العولمة ومآزق الهوية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص9.

⁴ علي حرب، حديث النهايات "فتوحات العولمة ومآزق الهوية"، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الشعوب والمجتمعات"¹. وهي أيضا في نظر آخرين "تغيير في قواعد اللعبة الوجودية، بقدر ما يبدل وجه الحياة ويخلق أشكالاً جديدة من الروابط بين البشر. ولهذا فهو يخرّب المعادلات ويخلخل سلم القيم، بقدر ما يعيد ترتيب الأدوار والأوليات. ذلك أن المعلومة التي هي مبنى العولمة، والتي يدار بها الواقع، من الآن فصاعداً، هي أولاً ذات طابع كوني؛ وهي ثانياً متاحة أمام الجميع لكي يساهموا في إنتاجها واستثمارها، أو في نقلها وتداولها. ولكونها كذلك، فهي تخلق لأول مرة الإمكان في أن يتعامل الناس كوسطاء بعضهم لبعض، بدلا من أن يكونوا أوصياء أو وكلاء بعضهم على بعض"².

2.3 بالنيابة عن بن نبي:

هذا المظهر الأخير للعولمة هو الذي جعلنا ننخرط بالنيابة عن بن نبي في جدال مع أنصاره، ليس بكوننا مؤيدين أو رافضين لهذا الطرح، وإنما معلقين ودارسين لما نعتقد أنه خط مسار فكره، باعتبار أن بن نبي لا يعارض التقدم العلمي والتكنولوجي ولا حرية الرأي وسبل إبدائه، وإنما يعارض الطريقة التي ينخرط بها المسلم في هذا العالم الأثري الافتراضي والدور الثانوي الذي يلعبه.

ليس لنا من حاجة لاجتهاد كبير لكي نبيّن من واقع عيشنا اليومي دور التكنولوجيا وخاصة التواصلية منها، التي أصبحت تشغل حيزاً هاماً من أوقاتنا وتستهلك جزءاً كبيراً من مداخلنا. وهي في الوقت ذاته تشكل مجالا اقتصاديا لصناع هذه التقنية يضاهاى أو يفوق في قيمته ما تُدرّيه علينا الموارد الطبيعية (من بترول وغاز وغيرها) التي يعتمد عليها اقتصادنا بشكل كلي. ليس هذا فحسب، بل إننا مشدودون إلى اقتناء كل جديد ومنغمسون ليس فقط في الأشياء التي يقدمها هذا المجال، بل ومتأثرون بالأفكار التي يتداولها رسل الحرية والديمقراطية تحت غطاء العالمية والعلمانية والإنسانية.

في هذا المستوى من التحليل يجدر بنا إعادة صياغة بعض الأسئلة التي من شأنها أن توجه مطلبنا من الأفكار القادمة. وأهم هذه الأسئلة هي: هل يغنينا المفهوم الجديد

¹ حتى لا يفهم النص خارج سياقه، فإن "علي حرب" يعتبر ظاهرة العولمة الإلكترونية "فتحا كونيا" وقد استعمل هذه العبارة للإشارة إلى من ينظرون إليها على سبيل السلب. أنظر: علي حرب، حديث النهايات "فتوحات العولمة ومآزق الهوية"، المرجع نفسه، ص10.

² علي حرب، حديث النهايات، المرجع نفسه، ص11.

للعولمة عن هويتنا؟ أي هل أن الإنسان (المسلم) بفضل هذا الفتح الكوني في التواصل أصبح يشعر أنه ينتهي إلى مجتمع عالمي يغنيه عن الانتماء القومي والعقائدي ويجعله يرقى بكيانه المادي كما يرقى في العالم السبراني؟

إن الإيمان بهذا الطرح لهو أكبر مغالطة يمكن أن يقع فيها الإنسان المسلم في حياته؛ وقد تصدق فكرة ديكارث وهوسرل التي ذكرناها أعلى هذا النص بخصوص ضرورة العودة؛ ليس على الذات هذه المرّة وإنما على الواقع لكي نفهم بحق ماذا يجري من حولنا، وهل هناك فعلاً مجال للارتقاء دفعة واحدة من مجتمعات ودول متخلفة إلى مصاف الدول المتقدمة، دون أدنى جهد أو مثابرة، فقط بتداول ما تقع عليه حواسنا في أجهزة الكمبيوتر التي تربطنا بشكل مباشر مع جميع أقطار العالم؟

بالفعل يمكن لأي إنسان ذلك من موقعه في أي مكان من العالم، وقد يشعر المرء ببلوغ أهدافه دفعة واحدة إذا ما تسنى له قول رأيه في أحد المواقع الإلكترونية بصراحة ودون أن يخشى أحداً، أو قضاء حاجة من حوائجه النفعية من على بعد آلاف الأميال دون أن يبرح مكانه. ولكن، ألا يشكل هذا الحدث في حدّ ذاته خطراً على الهوية الإسلامية؟ علماً أن "العولمة تعمل على توحيد العالم، من حيث النموذج الحضاري، أي من حيث أسباب العيش وتقنيات الاتصال وأسواق المال".¹

بالعودة مرّة ثانية إلى بن نبي الذي يربط بشكل وثيق التطور الحضاري بالتفسير الديني للتاريخ² فإن كلّ تفسير لمفهوم العولمة لا يمكن أن يرقى إلى تطلعاته الحضارية، التي يرى فيها حقيقة العلاقة بين البشر على أنها صراع بين الديانات؛ فبالنسبة إليه - وإذا قسنا على الأحداث الجارية في العالم الإسلامي اليوم- فإن ما يجري من حروب وتدمير وقتل في البلاد الإسلامية (العراق وسوريا وليبيا...) يمثل استمراراً لما حدث في 1967 مع الغزو الإسرائيلي لسناء وامتداداً للحروب الصليبية، التي أصبحنا نبارك

¹ المرجع نفسه، ص53.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، ط6، 2006، ص43.

مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط7، 2007، ص4
إن القرآن بحسب (عكاشة شايف، المرجع السابق، ص113) لا يقدم تحليلاً لبناء الحضارة وإنما المعالم التي أنارت الطريق أمام المسلم في بناء حضارته.

انتصاراتها بذريعة محاربة التطرف والإرهاب التي غرستها في عقولنا "المعلومة" العالمية التي تربط كلّ عنف مع الإسلام، والتي أصبحت تشكل خطراً على الهوية الإسلامية برمتها، وهي حقيقة قد تبدو من الخارج مجرد وسواس¹ أو "واقع فائق Hyperéel"²، بينما في الواقع هي أن هوية المجتمع الإسلامي تكاد يبتلعها مفهوم العولمة من الداخل، أي من داخل المجتمع الإسلامي ذاته عندما يُصدّق أفراد المجتمع مثل هذه الأقوال والأفعال وبياراتها.

3.3 حقيقة البناء الحضاري عند بن نبي: إنّ التفسير الوجودي والحضاري³ لأي مجتمع لا يغدو أن يحصره بن نبي في تفاعل عناصر ثلاثة هي: "إنسان + تراب + وقت"⁴، وعلى هذا الحال فإن ما يقوم به المجتمع الإسلامي اليوم ليس إلاّ تكديسا للأشياء لا يرقى بحال إلى مستوى الحضارة بالمعنى الحقيقي، الذي يتطلب التفاعل والانسجام بين هذه المكونات الحيوية الثلاثة، وهو لا يتعدى أن يقف عند المرحلة الأولى -مرحلة ما قبل التحضر- أو في أحسن الأحوال يمكن أن ينتج عن هذا التكديس "حضارة شيئية"⁵ تكونت بفعل تراكم منتجات حضارية، بينما تستدعي الحضارة تحليل العناصر المكوّنة لها وكشف الخلل فيها، أي تحليل الإنسان والتراب والوقت. من راسخ الأفكار عند بن نبي أن "للتاريخ دورة وتسلسلا"⁶ يسجل خلالها مآثر الأمم ونكباتها. وهو الأمر الذي يجده يستدعي أكثر من سبب للعودة إلى تاريخ الأمة الإسلامية عبر استحضار زمان نشأتها والتربة التي نبتت فيها والإنسان الذي شكّلها. واعتقاده في

¹ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، سورية، ط6، 2006، ص18.

² علي حرب، حديث النهايات، المرجع السابق، ص200.

³ يتحدث بن نبي عن الحضارة في معناها الوظيفي: باعتبارها مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه. أنظر: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، المصدر السابق، ص43.

⁴ مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص49.

⁵ المصدر نفسه، ص48.

⁶ المصدر نفسه، ص53.

ذلك لا يخرج عن كون حلّ المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي الآن مرتبط بشكل وثيق بمعرفة مكانه من دورة التاريخ، التي تؤهله بدورها إلى تحديد عوامل النهضة أو السقوط. وعليه فإنه "لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تندمج أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن في ذلك تضييعاً للجهد ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار"¹.

من المسلمات أيضاً عند بن نبي أنّ كل الحضارات سواء في الشرق أو الغرب إلا وارتبطت في مبدئها بالعقيدة الدينية²، التي يجدها بمثابة اكتشاف الإنسان لحقيقة حياته الكاملة، وهو الأمر الذي يجعله لا يؤمن بحل خارج هذا السياق، الذي يشرط سلوك الفرد ويجعل لحياته دلالة ومعنى.

4. الحلّ الحضاري:

1.4 وعي الزمان: أول ما يبدأ به بن نبي في تحليله للثلاثية الحضارية مقولة الزمان، التي يجب تحديدها طبعاً بناء على التأريخ الحضاري الذي يجب على المجتمع الإسلامي أن يعتمد حتى لا يكون خارجاً عن تاريخه، أي اعتماد التأريخ الهجري³ مرجعاً لتحديد موقعه في الماضي والحاضر واستشراف مستقبله ضمن هذا المجال الزمني الذي يجعل المسلم يعي مبدأه وموقعه وهويته والغاية التي ينشدها. حينها سيكتشف أنه يعيش في أزمة سببها الركود الذي نتج عن عزوفه عن الحركة وبالتالي تخلفه عن ركب التاريخ⁴. وبالغوص أكثر في عمق المشكلة سيجد أن عنصرها الأساسي هو الفرد

¹ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

² المصدر نفسه، ص56.

³ في محاولة لتحديد الوحدة والخصوصية الإسلامية، وفي تحليله لعنصر الزمان لفهم واقع المجتمع الإسلامي، يلجأ بن نبي إلى اعتماد التأريخ الهجري باعتباره أول نقطة تضعنا في مسارنا الحقيقي، وكانت سنة 1946 هي المرجع الزمني لوصفه الذي وجد فيه تقارباً كبيراً في المستوى الحضاري ونوع المشكلات التي تعاني منها جل المجتمعات الإسلامية. أنظر: المصدر نفسه، ص53.

⁴ مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص71.

الرجل¹ (الإنسان) بتأثيره السلبي في المجتمع بالأوجه الثلاثة: بفكره وعمله وماله². ليس هذا معناه قصور المسلم في العقل ونقصه في العمل وشحّه في المال وإنما إخفاقه في التوجيه³ المناسب الذي يحدّ من الإسراف في الجهد والوقت.

إن تحديد عنصر الزمان وإدراك أبعاده يجعل فهم الحضارة ذو اتجاهين: الأول يتعلق بالماضي من حيث الكشف عن خلاصة التدهور، والثاني يتصل بالمستقبل من حيث هو المصير والهدف؛ فمعالجة الأول تحتمّ علينا الانفصال عن الرواسب السلبية للماضي. أما معالجة الثاني فتدفعنا إلى الاتصال الإيجابي بمقتضيات المستقبل. فليس المقصود هنا من التحديد الإيجابي "وضع منهاج جديد للتفكير، فإن ديكرت قد وضعه بصورة لا نتوهم تغييرها إلاً بانقلاب علمي هائل، لا تحتمله الظروف الآن. وإنما المقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي نراها ضرورية تماما للثقافة وهي: الدستور الخلقي، الذوق الجمالي، المنطق العلمي والصناعة بتعبير ابن خلدون"⁴.

2.4 الحضارة ثقافة⁵: إن بلوغ معنى الحضارة في نظر بن نبي لا يعني بالضرورة التوصل إلى تقرير العلوم التي ترفع من مستوى فهم الإنسان لمحيطه والتغلب على الطبيعة، بقدر ما هو حصول المجتمع على ثقافة⁶ تكون بمثابة دستور تتطلبه الحياة

1 يستهدف بن نبي بكلامه هنا الرجل المسلم تحديدا باعتبار فعاليته البارزة في بناء المجتمع والحضارة في الأربعينات والخمسينات وحتى الستينات من القرن الماضي. مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر نفسه، ص71. بينما الآن فإن للمرأة القدر نفسه من المسؤولية في بناء الحضارة باعتبار تواجدها في كلّ القطاعات الحيوية بلا استثناء.

2 مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر نفسه، ص83.

3 يعرف بن نبي "التوجيه" على أنه -بصفة عامة- قوة في الأساس والتوافق في السير ووحدة في الهدف. أنظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر نفسه، ص84.

4 المصدر نفسه، ص89.

5 وقد أفرد بن نبي كتابا لمشكلة الثقافة تتبّع من خلاله عددا من مشاكلها كما عرّفها وعدد عناصرها وشرحها، وعرض الطريقة التي تتشكل بها الظروف الواجب توافرها. أنظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000.

6 ليست الثقافة علما خاصا بطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي محيط تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضّر. أنظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر نفسه، ص92.

العامّة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي. ولذلك نجد أن بن نبي يميل في طرحه حول كيفية تشكيل "الثقافة" إلى الهيكلية أكثر منه إلى الماركسية، حين يقرّ بأن "أي مجتمع في بدايته لا يكون قد شاد بعد (عالم أشيائه)، بل كل ما هنالك أن (عالم أفكاره) يبدأ في التكوين دون أن يشتمل أحيانا إلا على بوادر تفكير إيديولوجي".¹ ولذلك أيضا يعرف الثقافة في شموليتها على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه".² ولعل هذا الفهم هو الذي يحدد مفهوم الثقافة التي ينشدها والعناصر التي يجب أن تتشكل على منوالها.

2.4. أ الدستور الخلقى: يعدّه بن نبي من الضرورات في كلّ مجتمع يريد أن يُشكل حضارة.³ والحال أن المجتمع المسلم يُفترض به أن يستمدّ مواد هذا الدستور من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فيكفي أن يعود إلى نصوص هذا التراث ليسنّ قواعده الخلقية بما يتماشى ومقتضيات الحياة من كل جوانبها، وأن يستمد تنظيم علاقات⁴ أفرادها بما يحفظ الحقوق والواجبات الدينية والدنيوية. فخطأ المنهريين اليوم بالحضارة الغربية -يقول بن نبي- هو أنهم يعتقدون أن مظاهر حياتهم الاجتماعية وتنظيماتهم المؤسساتية الحالية قد نشأت من محض أفكار علمانية، ويتجاهلون مصادر نشأتها الحقيقية، التي تكون غالبا ذات "أصل مسيحي".⁵ وأكثر من ذلك هم يتجاهلون أن تكوين المجتمع الإسلامي برمته هو نتيجة فكرة روحية "الدين

1 المصدر نفسه، ص45.

2 المصدر نفسه، ص74.

3 المصدر نفسه، ص79.

4 يشير بن نبي إلى الاتفاق الكبير الذي يجده بين كلمة (دين Religion) باللاتينية، التي تعني الربط والجمع والمعنى الذي توحى به الآية 63 من سورة الأنفال: "وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم"، وهو دليل على أن الاجتماع الإنساني غريزة في الإنسان يغرسها الخالق فيهم. أنظر: المصدر نفسه، ص79.

5 يعطي مثال جمعية حضارة الأطفال "Crèche" التي نشأت في القرن السابع عشر على يد القديس "فانسان دي بول" الذي أنشأ مشروع رعاية الأطفال المشردين. أنظر: المصدر نفسه، ص80.

الإسلامي"، الذي وحّد بين "عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين"¹. ومن أجل ذلك وجب العودة إلى هذه المصادر المؤسسة للحضارة الإسلامية وصياغة دستور خلقي يتماشى ومتغيرات العصر، ويحفظ المبادئ الأساسية.

2.4. ب. الذوق الجمالي: هذا لا يعني أن يعيش المسلم حياة داخلية صوفية متطرفة، تجعله ينبذ كل أشكال الفنّ والجمال وحبّ الحياة الدنيا. فالأصحّ عند بن نبي هو أن يهذبّ المسلم من انفعالاته الأخلاقية بأن يولي تمثّل أفكاره شيئاً من الذوق الجمالي، باعتبار أن أحكام القيمة التي يصدرها الفرد الذي يؤلف المجتمع، تعود في حقيقتها إلى مصدر لا شعوري² يتحكم فيها الجوّ الذي ينشأ داخله هذا الفرد، وهو الذي يحدد سلوكه وكيفية تعاطيه مع المشكلات التي تواجهه. "فالأوروبي عامة يفكر في جوّ من الحساسية الجمالية، بينما يفكر المسلم في جوّ من الحساسية الأخلاقية؛ ومن أجل هذا لا يمكن أن يتشابه سلوكهما أمام المشهد الواحد"³. وليس هذا معناه أن يقلّد المسلم الأوروبي حتى في كيفية تمثله لأفكاره، فالأرجح عند بن نبي أن نولي للملكة الجمال -التي هي فطرة لدى كل فرد- اهتماماً بالقدر الذي نوليه لأخلاقنا وحياتنا البيولوجية، لأنها تعبر عن مستوى أرفع من مستويات الوجود البشري، الذي هو ثقافته.

2.4. ج. المنطق العملي: ولعلّ تكوّن المجتمع الإسلامي المرتبط بـ "الفكرة" الدينية هو ما جعل من المسلم يتوقف نشاطه عند الجهد الفكري، "فالعقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه شيء يكاد يكون معدوماً"⁴. وهذا ما يستدعي من المسلم تعزيز إرادته الفاعلة حتى تتحقق ثقافته بما ينتج بالفعل على أرض الواقع، فالفكرة إذا ما لم يكن لها ما يقابلها من أثر مادي

¹ المصدر نفسه، ص 81.

² المصدر نفسه، ص 52-53.

³ يورد بن نبي مثلاً، المشهد الأخير من مسرحية "عطيل": شكسبير، حين يقتل عطيل ديمونا وينتحر. حينها "يبلغ انفعال المتفرج الأوربي أوجه، لأن الدائرة التي يعيشها في تلك اللحظة دائرة جمالية، أليس يرى نهاية مخلوقين جميلين؟ بينما يظل انفعال المتفرج المسلم هادئاً في هذا المشهد لأن دائرته أخلاقية فهو يرى قاتلاً ومنتحراً". أنظر: المصدر نفسه، ص 53.

⁴ المصدر نفسه، ص 86.

وبكل أشكالها، فهي ستبقى مجرد ترف فكري، لا جدوى منه. وما المحنة التي تعيشها الحضارة الإسلامية إلا نتيجة لعدم الجدوى أو عدم الفاعلية التي يتصف بها سلوك الفرد المسلم، فالثقافة ومعها الحضارة ليستا مجرد أفكار يتداولها أفراد المجتمع فيما بينهم، إنما "جوا" يمتص الفرد تلقائيا عناصره من ألوان وأصوات وحركات وروائح وأفكار، يتلقاها لا بوصفها معاني ومفاهيم مجردة، ولكن بوصفها صورا مألوفة يستأنسها منذ مهده"¹، أي حقائق مادية تتقاسم معه وجوده.

5. الخاتمة:

ليس لنا أن نستمر في تحليل هذا الفكر الاجتماعي باعتبار أن الأهداف التي حددتها الدراسة قد أشرفت على تحقيقها، وبالعودة إلى استحضار أهم التساؤلات المطروحة نجد أن سؤال راهنية فكر بن نبي الاجتماعي تتلخص في كون المشكلات التي راح يعالجها في كل مؤلفاته الكثيرة تبحث في سؤال وجودي واحد، يتعلق بمشكلات الحضارة الإسلامية وعن سبل حلها، وقد كشفت الدراسة أنه لا يوجد فرق كبير بين الوضعية الواقعية للعالم الإسلامي حين درسها بن نبي ووضعها الراهن باختلاف بسيط في بعض التفاصيل، باعتبار أن وصف الوضع الحضاري للمجتمع اليوم لا يخرج عن كونه مجتمعا لا يزال في مرحلة (التخلف) التي تميزها الأشياء المكدسة. وأما بخصوص معنى العولمة التي -ربما- لم يكن لـ: بن نبي استشراف واضح لما آلت إليه اليوم عبر فتح الإنترنت، التي عمقت من حجم الهوة بين عالمين: عالم متغير فعّال بفضل انسجام أفكاره وأشياءه وعالم متغير غير فعّال (مستهلك) يدعي ولوج العالمية عن طريق استهلاكه لمنتجات الحضارات الأخرى، تبقى في كل أشكالها ومهما بلغت قوة فعاليتها خارج التصنيف الذي يعتد به بن نبي في فهم الحضارة كونها ثقافة، تركز بالدرجة الأولى على التفسير الديني للتاريخ، وهذا الأخير لن يتحقق إلا بعودة المجتمعات الإسلامية إلى الفكرة الدينية أولا، التي كانت سببا مباشرا في نشوء هذا المجتمع، باعتبارها معيارا ينسج على ضوئه الدستور الأخلاقي والذوق الجمالي والمنطق العملي ثم الصنائع بمختلف أشكالها.

¹ المصدر نفسه، ص 90.

أما عن الواجهة التاريخية للعالم اليوم، فإن مفهوم "الديمقراطية الليبرالية"¹ الذي أصبح يغذي أفكار الإنسان (الغربي خاصة) ويؤثر بشكل مباشر على باقي المجتمعات بما يحمله من تطلعات نحو الحرية والمساواة وبفضل ما بلغه من تطور على المستويات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية؛ فإنه يبقى -إذا ما اعتمدنا مفهوم بن نبي للحضارة- شيئاً ثانوياً لا يعبر بصدق عن أرقى المستويات التي يمكن أن تحدد معنى نهاية التاريخ كما يفهمها "هيجل" ببلوغ الدولة الليبرالية المتمثلة في الدولة الجرمانية أو "ماركس" ببلوغ الشيوعية. إنما ببلوغ بعدها الميتافيزيقي الذي يجعل من الحياة الأرضية جزءاً بسيطاً إذا ما قارناه بالحياة الآخرة التي تعنى الخلود إما بالسعادة الدائمة أو الشقاء الدائم.

المراجع:

1. أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001.
2. عكاشة شايف، الصراع الحضاري في العالم الإسلامي "دراسة تحليلية في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي"، دار بن مرابط للنشر، الجزائر، ط5، 2010.
3. علي حرب، حديث النهايات "فتوحات العولمة ومآزق الهوية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.
4. فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1993.
5. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط6، دمشق، سورية، 2006.
6. مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط7، 2007.
7. مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، سورية، ط6، 2006.

¹ فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، (ط1)، 1993، ص8.

8. مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، ط6، 2006.
9. مالك بن نبي، فكرة كومنوليث إسلامي، دار الفكر، دمشق، سورية، إعادة ط2، 2000.
10. مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن (القسم الأول والثاني)، دار الفكر، دمشق، سورية، ط4، 2006.
11. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2002.
12. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000.
13. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية" الجزء الأول، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط6، دمشق، سورية، 2006.